يقدسون « الذات القائدة المنظرة » ممثلة بهم وبحزبهم « الخيالي » ونظريتهم « الطوباوية » ، ويسمون ذلك كله « ماركسية ــ لينينية » .

ــ ٢ ــ

ومن حيث المنهج ايضا ، فان صادق جلال العظم استمرار للمدرسة نفسها التي فرخت بعد حزيران ، والتي لبست لبوس الماركسية ، محولة الماركسية الى ميتافيزياء عجيبة . واذا كان الياس مرقص هو استاذها الاول ، فان صادق ليس الا احد تلامذتها الذين استهوتهم استثارة الميتافيزياء الجديدة ، فحملوا رايتها غير هيابين .

وهنا حدث الاشكال : ذلك ان الميتافيزياء هي ليست الماركسية ، وهم يحاولون جعل الماركسية ميتافيزياء . الماركسية هي النظرية المادية في المعرفة ، هي المادية الجدلية والمادية التاريخية ، وهي فوق هذا وذاك بحث ودراسة وتحليل وممارسة . انها معرفة التناقضات لا عن طريق اخضاعها للفكر فقط ، بل عن طريق الاحتكاك بها بالممارسة . وماوتسي تونغ الذي استشهد به صادق كثيرا ، يركز على هذه الناحية كثيرا . ولا بأس هنا من استحضاره . انه يقول :

« ان للمادية الديالكتيكية من الفلسفة الماركسية ابرز ميزتين : اولاهما صفتها الطبقية ، فهي تعلن بصراحة ان المادية الديالكتيكية هي في خدمة البروليتاريا ، والثانية صفتها العملية ، فهي تؤكد تبعية النظرية للممارسة العملية ، حيث ان النظرية تقوم على أساس الممارسة العملية ، ثم تعود لتخدم الممارسة العملية ثانية » .

وحين يتساءل ماو : « من أين تنبع الافكار السديدة ؟ » يجيب : « انها تنبع من الممارسة الاجتماعية وحدها ، تنبع من ثلاثة انواع من الممارسة الاجتماعية : النضال من اجل الانتاج والصراع الطبقي والتجربة العملية » (الكتاب الاحمر ص ٢١٦) .

والماركسية تنطلق « من الحقائق الموضوعية لا من التعاريف المجردة » وتتوصل « ... الى مبادىء مرشدة وسياسات واجراءات عن طريق تحليل تلك الحقائق » (الكتاب الاحمر ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣) ولهذا فالماركسية مجهدة ، وان يكون الانسان ماركسيا معناه ان يجد ويعمل ويبحث ويناضل . ولكن الانسان لا يحتاج الى هذا كله ، اذا اراد ان يكون مثاليا . يقول ماوتسي تونغ :

« ان المثالية والميتافيزيقا هي الشيء الوحيد في العالم ، الذي لا يكلف الانسان اي جهد ، لانها تتيح له ان يتشدق كما يشاء دون ان يستند الى الواقع الموضوعي ، ودون ان يعرض اقواله لاختبارات الواقع . أما المادية والديالكتيك فهي تكلف الانسان جهدا ، اذ انها تحتم عليه ان يستند الى الواقع الموضوعي ، وان يختبر امامه ، فاذا لم يبذل جهدا انزلق الى طريق المثالية والميتافيزيقا» (الكتاب الاحمر ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤) .

ولقد اختارت هذه المدرسة (مدرسة مرقص ــ العظم) هذا الطريق . ولهذا وقعت في المزالق التي ذكرناها آنفا ، ووقعت اضافة الى ذلك فيما يمكن ان يسمى الاطلاقية . وهذه النظرة من بعض مظاهر المنهج الذاتي . وقد سماها ماوتسي تونغ النظرة الوحيدة الجانب ، وعرفها كما يلي :

« وهي النظرة الميتافيزيقية الى القضايا . فالنظرة الوحيدة الجانب في تقديرنا لاعمالنا هي اما اثبات كل شيء واما نفي كل شيء .... ومعنى اثبات كل شيء هو ان المرء يرى من اعمالنا الجانب الحسن وحده دون الجانب السيء ، ويقبل المدح وحده دون النقد . والقول بأن اعمالنا حسنة من كل ناحية ، فيما يبدو ، هو قول لا يطابق الحقيقة ، اذ ليست كل اعمالنا حسنة ، بل ما زالت هنالك نقائص واخطاء فيها . كما انها ليست سيئة كلها ، لان هذا ايضا يجافي الحقيقة . اذن فالتحليل واجب في هذه الحال . اما نفي كل شيء فهذا يعني ان المرء يعتبر ، دون ان يقوم بأي تحليل ، انه ما من شيء قد انجز بصورة مرضية ، ويخيل اليه ان قضية البناء الاشتراكي العظيمة ، قضية النضال العظيم الذي يسهم فيه مئات الملايين من الناس كلها فوضى وليس فيها ما يستحق التقدير . وبالرغم من ان كثيرا ممن ينظرون هذه النظرة يختلفون عن الذين يضمرون العداء نحو النظام الاشتراكي ، الا ان نظرتهم هذه خاطئة ومضرة جدا ليس من شأنها الا ان تسبب فقدان الثقة بقضيتنا . لذلك فمن الخطأ تقدير عملنا سواء من وجهة النظر القائلة باثبات كل شيء او القائلة بنفي كل شيء » (الكتاب الاحمر ٢٣٢ ــ ٢٣٣) .

وهذا ما فعله صادق ، كما فعله الياس مرقص من قبل . وسندرس هذه الاطلاقية ، كما برزت عند صادق من خلال المظاهر التالية :